سياسة روما الدينية في بلاد المغرب القديم

د. رحمان بلقاسم ــ جامعة الجزائر

ملخص:

تعرضت في هذا الموضوع إلى أسس السياسية الرومانية بصورة عامة، مع إعطاء السياسة الدينية الرومانية في بلاد المغرب بدءا قبل الفترة المسيحية إلى انتشارها بعد الاعتراف بها، ثم ظهور القوانين التي تؤطر هذا الجانب إضافة إلى ظهور الكنيسة الرسمية وما حدث فيها من انشقاقات أدت إلى ظهور الحركة الرومانية وعلاقتها بحركة الدوناتيين، ودور الحركتين في ضرب أسس الاستقرار الروماني في بلاد المغرب.

Résumé:

J'ai présenté une Vue général d'une politique Romaine au maghreb Ancien, et J'ai précisé le domaine de la religion qui se marque aussi bien dans les œuvres littéraires, que dans les actes quotidiennes, mais la politique religieuse romaine donne l'impressions dominante le maghreb romain, c'est celle de l'extrême christianisme officiel. cette phase marque des troubles leurs guide les donatistes avec les circoncellions en n'oublions pas aussi les actes législatives qui renforcent la politique romaine , et d'autre coté consolide la résistance maghrebine contre l'occupations romaine.

أولا: سياسة روما الدينية:

لقد عرف المغرب القديم كغيره من مناطق العالم القديم، عددا هاما من المعتقدات تكتمت عنها المصادر، والشيء القليل الذي وصلنا منها يبقى يشوبه الغموض[1].

ومن أهم المصادر التي يمكن الأخذ بها في هذه الدراسة هي نصوص هيرودوت التي تشير إلى تقديس الليبي[2] للظواهر الطبيعية، ومنها الشمس والقمر وهو ما تؤكده الدلائل الأثرية بحيث لوحظ رسم لكبش يحمل بين قرنيه قرص الشمس. ويمكن إرجاع سبب تقديس المجتمعات القديمة لهذه الظواهر إلى عجزها عن تفسير وجودها، وإلى الفائدة التي كانت تقدمها لها هذه الظواهر[3].

عملت الإدارة الرومانية في المغرب القديم على الجمع بين السلطة الإمبراطورية السياسية والسلطة الروحية، ومنه جعل هذا الآخر الكاهن الأعظم المؤله، لتسهيل عملية التحكم في المنطقة التي ما فتئت تثور ضد إدارة الاحتلال[4].

وعليه فقد أنشأت السلطة الرومانية جهازا رسميا يقوم عليه كبير الكهنة، مهمته الإشراف على هذه الديانة، ومختلف شعائرها التي تتمثل في إقامة الاحتفالات والمآدب والمهرجانات، وكان الفقراء يجدون فيها ضالتهم من إشباع للبطون واللهو[5]..

ومهما يكن من أمر فقد كانت خريطة انتشار الديانات في المغرب القديم في الفترة الرومانية معقدة ومتداخلة، إذ نجد ديانات مختلفة

---

[1] - Tacite, Annales, Trad. H. Borneque, 1965, TIII, 74.

[2] - Ibid,VI, 23, Cagnat (R), L'Armée romaine d'Afrique et l'occupation militaire sous les empereurs, 1913, P20

[3] - محمد البشير شنيتي، سياسة الرومنة، الجزائر، 1985، ص ص 99- 116.

[4] - Albertini (E), Marcais (E), pergent (E) , l'Afrique du nord Française dans l'Histoire, Alger, 1955, P 60.

[5] - Gsell (st), H. A. A.N.T1, P 160, T5. P123

الأصول، كالمعتقدات الشرقية البونيقية التي اعتنقها بسطاء المدن والأرياف، والمعتقدات الليبية المحلية التي انتشرت خارج مناطق نفوذ الرومان كالمناطق المعزولة من الصحاري والجبال[6].

وما يمكن استخلاصه من خلال ما سبق، هو أن المجتمع قد قدس تلك المعبودات بدافع الحاجة إليها ، وعندما عرف الفائدة التي تقدمها له الظواهر الطبيعية تفانى في عبادتها عن طريق الأضحيات والقرابين التي كان يقدمها لها، ولما عجز عن تفسير حقيقة وجودها ومسبباتها زاد في إقباله عليها بمحض إرادته، على عكس عبادة الإمبراطورية التي فرضت عليه إكراها، ورأى تبعيتها للجهاز السياسي الذي دمر حياته فحمل السلطة الرومانية مسؤولية تدهور أوضاعه الاقتصادية والاجتماعية.

أما عن الخاصية التي تميزت بها الديانة عند سكان المغرب القديم قبل ظهور المسيحية به، فهي أنها كانت عامل إجماع على نبذ التبعية والانصياع للإدارة الرومانية، وهو ما ساعد في تسهيل مهمة المبشرين الذين وجدوا المناخ الملائم لنشر تعاليم ومبادئ الديانة الجديدة في المغرب القديم، حيث يجمع لمؤرخون أنه لم يكن للسيطرة الرومانية عمليا تأثيرا يؤدي إلى منع عبادة الآلهة التقليدية التي قدسها السكان الأصليون في المغرب القديم في معابد الدين المتواضعة طبقا للطقوس المتوارثة، ولكنهم عكفوا – في بعض الأحوال – على عبادة الآلهة اليونانية والشرقية، فعلى سبيل المثال كانت عبادة جنيات المياه وأهبات الخصب، والصحة تتستر في بعض الأحيان وراء عبادة نبتونوس(NEPTUNUS)وإسكولابيوس (AESCULAPIUS) وسرابيتس (SERAPIS) والآلهة الفارسية (MITHRA) وفي الأقاليم التي تنتمي للمملكة النوميدية – حيث كان التأثير البوني عميقا وراسخا – توجد أيضا دلائل طفيفة على تكريس معبد للآلهة (HGLPGDM)ولكن غالبية سكان الولايات الإفريقية مارست عبادة ساتورنوس (SATURNUS)

---

[6] - Gsell (87), la tripolitaine et le Sahara au 3e s. de notre ère, CRAT, 1962, PP 149- 166.

والآلهة اليونانية الرومانية التي تماثل آلهة قرطاجة القديمة[7]، وكانت عقيدة ساتورنوس الإفريقي هذا مجرد استمرار لعقيدة بعل حمون تماما مثل جونو – كايلستس (JUNO-CAELESTIS) المعبودة الكبرى لقرطاجة الرومانية التي لم تكن سوى تانيت (TANIT)، الآلهة الكبرى لقرطاجة البونية، كما عرفت عبادة آلهات الزراعة (CERERES) في الأزمنة البونية النوميدية وغيرت عملية صبغ البلاد بالصبغة الرومانية ديانة سكان المنطقة إلى حدٍّ ما[8]. وفي هذا الصدد عندما ظهرت أسماء الآلهة الرومانية مرفوقة بأسماء اللغة الإفريقية (BAAL HAMMON و JUPITER) (TANIT CAELESTIS) أدرك الرومان أنه لم تتم رومنة الآلهة الإفريقية بل أفرقة المعبودات الرومانية(AFRICANISATIONS)

وتعكس أماكن العبادة تأثير العمارة الرومانية، ولكن فيما يتعلق بلب العقيدة وجوهرها فإن الدين الإفريقي احتفظ بخصائصه المميزة، التي تعبّر عنها الطقوس والأشكال المرسومة على اللوحات، وحتى العبارات المستخدمة في الإهداءات الدينية اللاتينية، التي تحاكي الصيغ التقليدية المتعارف عليها منذ القدم، محاكاة مثيرة[9].

وبالنسبة لعبادة الإمبراطور الرسمية، فلم يمر وقت طويل حتى حظيت شعائرها بالتقديس في المدن، وجرى التعبير عن الولاء لروما عمليا عن طريق ممارسة الشعائر الدينية التي كانت جزءا مكملا للحضارة الرومانية وتطلع أعضاء مجلس الأعيان(ORDODECURIONUM)، الذين بلغوا قمة المناصب البلدية إلى منصب الكهانة (FLAMEN) لمدى الحياة، وإلى أن يصبح كل منهم عضوا في جماعة الكهنة التي كانت تتمتع وحدها بحق إقامة الصلوات، وتقديم النذور باسم المواطنين للزوجين الإمبراطوريين المؤلهين[10]،

---

[7] - Pline l'Ancien, Histoire Naturelle, V2, trad. J. desanges coll. Unive, de France, 1980, P 83.

[8] - Bordet (M), precis de l'Histoire romaine, Paris 1963, P58

[9] - Mommsen (T. H), Histoire romaine, P162

[10] - Gsell (87), (H. A.A.N), OPCit. T7, PP77- 79

وزيادة على ذلك فإن مجلس الولاية الذي كان يتكون من ممثلي كل المجالس المحلية، كان يجتمع مرة في السنة في قرطاجة لاختيار كاهن الولاية – الكاهن الأعظم – والذي من واجبات عمله ومنصبه أن يعظم الدين الرسمي باسم كل الولاية [11].

وأخيرا كان في كل مدينة هيكل لعبادة الثالوث جوبتر (JUPITTER) وجونو (juno) ومينرفا (MINERVA)، وعبادة مارس (MARS)، جد الشعب الروماني وحامية وعبادة فينوس(VENUS)، وكيريس (CERES)[12]، وأبوللو(APOLLON) وميركوريوس (MERCURIUS) وهرقل(HERCULES)، وباخوس (BACCHUS)، وغير ذلك من الأشكال الرسمية لعبادة الإمبراطور، والحياة الروحية اليونانية الرومانية [13].

ومن أجل ذلك أقيمت المعابد، والتماثيل، والمذابح، وقدمت القرابين على شرف هذه الآلهة وآلهة عديدة أخرى مثل السلام(PAX) والوئام(CONCORDIA) والحظ(FORTUNA)، والروح الحارسة للإمبراطور(GENIUS)، والروح الحارسة لمجلس الشيوخ الروماني [14] وغيرها.

كذلك وجدت في المنطقة آلهة الأقاليم الشرقية في الإمبراطورية الرومانية والتي وجدت قبولاً سريعاً في روما وفي منطقة الغرب، وهي الآلهة التي وصلت عن طريق الموظفين والجنود، والتجار، الذين نشروا مثلا عبادة إيزيس(ISIS) وميثرا(MITHRA) أو كوبيلي(CYBELE)[15]، وقد شبهت هذه أحيانا بالآلهة المحلية، مثلما شبهت ايزيس بديميتر(DEMETER)، أو كوبيلي بكايلستس(CAELESTIS)، وبنفس الطريقة ومن نفس الأقاليم وصلت إلى المغرب موجة التصوف التي اجتاحت كل العالم الروماني رغم أن

---

[11] - Dion Cassius, Histoire romaine, Ed, Boissrain, 1955, LXI, 25.

[12] - محمد البشير شنيتي، الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، الجزائر، 1999، ص ص 53-60.

[13] - محمد البشير شنيتي، (سياسية الرومنة)، المرجع السابق، ص ص 47- 73

[14] - هشام الصفدي، تاريخ الرومان القاهرة 1977 ص ص 104- 221.

[15] - نفس المرجع، ص 200.

الأديان الشرقية الباحثة عن الخلاص لم تكن تستهوي الصفوة الإفريقية مثلما استهوتهم جمعية عبادة باخوس، وجمعية عبادة ديميتر[16]، وبالمثل فإن المذاهب الصوفية وبخاصة الأفلاطونية الجديدة انتشرت في بعض الدوائر، بل وحسب عدد من المؤرخين فإنه جرت عملية للتوفيق بينها وبين معتقدات بونية معينة، وتصور نقوش الشرفة(CHORFATSTELAE) على سبيل المثال اتجاهات متأثرة بالأفلاطونية الجديدة[17]، ويعتقد عدد من المؤرخين أن الفكرة التي عبرت عنها هذه الآثار تعني أنه كان هناك موجود علوي أول يدير العالم السفلي بواسطة الأقاليم[18] (RYPOSTATES)، وأنه من المحتمل أنه كان مهّد الطريق للإيمان بإله واحد في ظل المسيحية.

بالرغم من أن معمري المغرب عموما دانوا بدين الرومان، وتمذهبوا بمذاهبهم إذ أن الدين جزء متمم من الحضارة الرومانية، إلا أننا نسجّل أن كثيرا من السكان الأصليين كانوا محافظين على معتقداتهم القديمة من تقديس المظاهر الطبيعية والحيوانية أو كانوا عاكفين على عبادة آلهة القرطاجيّين أي تانيت التي أصبحوا يسمونها سيلستيس والآلهة السماوية، وبعل الذي صاروا يسمونه ساترنس.

أما الطبقة الأرستقراطية فقد نبذت في الغالب هذه المعتقدات القديمة وعوضتها بآلهة الرومانيّين، وفي طليعتها الثالوث الكابتولي (LA TRIADE CAPITOLINE) جبتر، جينون، مينرفا، ثم آلهة أخرى منها: مارس (MARS) وهرمس(MERCURE)[19] وغيرها.

أما الآلهة الشرقية القادمة من مصر وآسيا الصغرى، فكانت تعبد بروما وكذا ببلاد المغرب، وهذا يدل على أن التدين في هذه الفترة من تاريخ المنطقة تميز بالتسامح، وعدم التعصب حيث تم قبول مختلف المعبودات، وساد الاعتقاد لدى الطبقة المثقفة أن جميع الأديان الخاصة

---

[16] - S. AFanic, l'évolution intellectuelle romaine, Paris 1970, P 180.

[17] - Gsell (ST), PFlaum (H.G), inscriptions latine de l'Algérie (CILA), Paris 1922, P 66.

[18] - عبد الوهاب (حج)، خلاصة تاريخ تونس، ط3، 2000، ص 18.

[19] - A LFanic, op Cit, P 165.

ما هي إلا أشكال مختلفة للدين العالمي، وأن أسماء الآلهة والآلهات ما هي إلا تعيين أصل إلهي واحد متفرق في العالم [20].

أما أفراد الطبقة العامة من الشعب فقد إعتقدوا أنه بقدر ما يزداد عدد الآلهة التي يعبدونها، ويقدسونها بقدر ما يضمنون لأنفسهم حماة يحمونهم ويصرفون عنهم الشر والأذى [21]، وعليه بني ذلك الموقف لفلسفي من قبل الطبقة المثقفة، وهذا الاعتقاد من قبل الطبقة العامة وبالتالي كلا المفهومان يؤديان عمليا إلى نتيجة مؤداها القبول بالأديان الأخرى.

والمؤكد أن تقديس الإمبراطور كان فوق كل عبادة، كان له المكانة الأولى حيث تميز بمواكبه الرائعة التي يهرع إليها الناس من كل مكان، تقدم الضحايا والقرابين، وتهيئ الأطعمة المقدسة حيث تتحول المدينة إلى حانة كبيرة وينهمك الناس في الفجور[22] وهذا العمل المقدس إشارة للوفاء، وعهد للولاء للإمبراطور.

- روما والديانات التوحيدية في المغرب القديم :

1 – ظهورها:

أما عن الديانة اليهودية فإن اليهود قد رافقوا الفينيقيين في أسفارهم إلى الموانئ والمصارف التجارية ببلاد المغرب، خاصة أيام توسعات الفرس نحو فلسطين ، كما انتشروا في مدن عديدة، وقاموا بدعاية كبيرة لدينهم خاصة بين الوثنيين مما أوجد أقليات يهودية ببلاد المغرب في الموانئ ، وبخاصة في قرطاجة وفي مناطق صحراوية عديدة [23].

---

[20] - AHMEd. (S), Berbères et christianisme, Paris 1982, P 358.
[21] - Batifole (P0, le catholicisme de St Augustin
[22] - Pirenne (G), les grands courants de l'Histoire universelle, Paris 1960, P 118.
[23] - Farid herbe (G), collection complète des inscriptions numidique, 1870.

أما عن النصرانية فقد بدأ التبشير بها، انطلاقا من المدن والموانئ وخصوصا بقرطاج، ثم توسعت عمليات التبشير نحو المناطق الداخلية منذ أواخر القرن الأول الميلادي لكنها لم تبرز إلا في أواخر القرن الثاني للميلاد، وانطلاقا من مقولة ترتليان (Tertullian) المشهورة "نحن لم نخلق إلا البارحة، و مع ذلك أصبحنا نملأ كل مكان"[24] هي مقولة من خطابه الذي ألقاه سنة 197م، مما يؤكد أن المسيحية قد تقوت واشتد ساعدها على الأخص في النصف الثاني من القرن الثاني للميلاد، حيث تمركزت آنذاك في افريقية البيروقنصلية، وطبقا لترتوليان الذي عاش في نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث فقد كانت توجد أعداد كبيرة من المسيحيّين في المنطقة في ذلك الوقت ينتمون لكل الطبقات، ويمارسون شتى المهن[25].

ومن المحتمل أن مجمعا من 71 أسقفا عقد في قرطاجة حوالي سنة 220م حضره في النهاية 90 أسقفا، وعقد مجمعا آخر حوالي سنة240م[26]، وهذا يبيّن أن المجتمعات المسيحية الصغيرة في بلاد المغرب كانت مبعثرة بين عدة مدن مشكلة بذلك ما اعتبرته الإمبراطورية خطرا عظيما، وكان واضحا أن المسيحيّين كانوا يرفضون الإيديولوجية الإمبراطورية ويرفضون بصفة خاصة ممارسة عبادة الإمبراطور. فقد كان المسيحيون يتبنون بثبات موقف حركة معارضة، وبالرغم من نظرة روما المتفتحة وموقفها المتسامح المعتاد إزاء الأديان الجديدة، إلا أنه لم يكن بوسعها أن تتساهل مع طائفة تهدف إلى خلق شبكة واسعة من جماعات تعمل من أجل مثل أعلى مختلف خارج عن إطار الأنظمة الرسمية، وعلى هذا الأساس فرضت روما عقوبات صارمة على المسيحيين(SCILLIUM) بأمر البروقنصل (حاكم

---

[24] - Ibid, P

[25] - Will manns (G), Mommsen (TH), C. I. L, VIII, 5 supp, Berlin, 1881.

[26] - Battifol (P), Op Cit. P 83

ولاية إفريقيا)[27]. وشهد عام 203م استشهاد القديستين بربيتوا (PERPETUA) وفيليستاس (FELISTAS) ورفاقهما الذين ألقى بهم إلى الوحوش الكاسرة في ساحة ملعب قرطاجة [28]، ولكن على الرغم من الإجراءات القمعية التي يجب ألا يفوتنا ذكرها والتي كانت تنفذ على فترات متباعدة إلا أن ذلك لم ينجح في كبت حماس المؤمنين الذين كان العديد منهم يميلون بشوق كبير إلى الاستشهاد.

ومع ذلك فقد عرف المغرب القديم المسيحية، قبل تاريخ 180م. وما اضطهاد المسيحيين الإثنى عشر في القرية المذكورة أعلاه، إلا دليلا على ارتفاع عدد معتنقي الديانة الجديدة الذين أصبحوا يشكلون خطرا على عبدة الإمبراطورية ومن ورائها السلطة الرومانية [29].

وما يؤكد هذا الرأي هو عدم وجود أدلة مادية أو كتابية تشير إلى تاريخ أو مكان معين لظهور الديانة الجديدة في المغرب القديم، وأشهر النصوص التاريخية التي ذكرت مبشري المسيحية من الحواريين في المغرب القديم هو نص لابن خلدون استند فيه على مؤرخين مسيحيين ويقول في هذا الصدد " وعند علماء النصارى أن الذي بعث من الحواريين إلى روما بطرس ومعه بولس من الأتباع ولم يكن حواريا وإلى السودان والحبشة ومنى العشار وأمبرواز إلى أرض بابل، والشرق توماس، وإلى أرض إفريقية فلبس وإلى أفسوس قرية أصحاب الكهف يوحنا، وإلى أورشليم وهي بيت المقدس يوحنا، وإلى أرض العرب والحجاز بارتلوماوس وإلى أرض برقة والبربر يشمعون القناني"[30].

يتضح من النص السابق أن الحواري فلبس هو الذي بعث إلى إفريقيا البروقنصلية ، والحواري شمعون القناني إلى بلاد البربر

---

[27] - Gsell (ST), la république romaine et les rois indigeres, TVII du H.A.A.N., Paris 1956, P92

[28] - Albutini €, A. N. F. H, OP Cit, P 55

[29] - Grimal (P)

[30] - Balout (L), Vint cinq Année d`Histoire Algérienne, Paris, P 10.

وبالتحديد إلى برقة (ليبيا)، ويذكر منساج أن هذين المبشرين قد تمكنا من استقطاب عدد كبير من الأتباع حولهما، وتمكنا من نشر المسيحية خاصة في المناطق الريفية[31]، وحسب بعض الباحثين، فإنه لا يمكن الأخذ بهذا الرأي لعدم توفر نص صحيح يؤكد ذلك لاسيما أن كتاب منساج ظهر في فترة نشطت فيها الحركة التنصيرية التي كانت تسعى لنشر المسيحية في الوسط الجزائري وبالتالي يبدو أن الهدف من هذا الكتاب هو هدف عملي بل لا يستبعد أن يكون ظهوره قصد خدمة حركة التنصير[32] . ويلاحظ أنه في أواسط القرن الثاني عرفت المسيحية طريقها بين سكان المغرب القديم بحيث تهافت هؤلاء على اعتناق هذه الديانة ذات الاتجاه التوحيدي. وفي هذا الصدد يصرح القديس كبريانوس في مجمع ديني بقرطاجة قائلا:"إن الملحدين مهما عشقوا الأصنام إلا أنهم يعترفون بالله العلي الأب والخالق" وفي مثل تلك الأوضاع التي عرفها مجتمع المغرب آنذاك، حيث كثرت العبادات الوثنية، والرومانية والتعصب لها تغلغلت المسيحية في قرطاجة[33].

أما بخصوص الطريق الذي انتشرت من خلاله المسيحية في المغرب القديم فيذكر منساج أنه كان عبر اتجاهين، الأول من الشرق والثاني من روما.

ويعتبر استخدام الاتجاه الأول رائدًا مقارنة بالاتجاه الثاني، ومثلت سوسة وشرشال وقرطاجة المراكز الأولى للتبشير المسيحي في المغرب القديم[34].

وقد ساهم البحارة والتجار الشرقيون، الذين قدموا من موانئ الساحل الفينيقي والإسكندرية وتجار بيت المقدس في نشر تعاليم هذا الدين، بين سكان المنطقة[35].

---

[31] ـ محمد البشير شنيتي، (سياسة الرومنة)، المرجع السابق، ص ص 68- 72.

[32] - Gsell (ST), A.A.A., T1, OP Cit

[33] - Pline l`Ancien, OP Cit, P5, 11

[34] - Grimal (P), OP Cit, P8

[35] - Walter (G), césar, Marabout, univ, Paris, 1964, P 369.

ويبدو أن اليهود الذين اعتنقوا المسيحية وحاولوا نشرها من خلال هياكلهم (SYNAGOGUES)، المنتشرة عبر مدن المغرب القديم بين بني جلدتهم وأتباع المعتقدات الوثنية، سرعان ما تم اضطهادهم ، لتكاثر أعدادهم، وربما لتشكيلهم خطرا على الديانة اليهودية.

2 – عوامل انتشار المسيحية في المغرب القديم:

انطلاقا من نصوص ترتليانوس، يشير منساج إلى أن عدد المسيحيين كان مرتفعا في القرن الأول الميلادي، ليس في افريقية البروقنصلية فحسب، بل إن نوميديا وموريتانيا عرفتا أيضا انتشارا واسعا للمسيحية .

ويبدو أن معتنقي الدين الجديد لم يكونوا من البؤساء فقط، إنما شمل شرائح المجتمع المختلفة من أغنياء ونبلاء وحرفيين ومزارعين ولا سيما الصغار منهم، وكذا عبيد المدن والأرياف، وقد تراوح عددهم في الفترة الممتدة ما بين نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث للميلاد بين ثلاثمائة ألف وثلاثمائة وخمسون ألف مسيحي، ينتشرون على النحو التالي:

- من 200000 إلى 230000 بالبروقنصلية
- من 80000 إلى 100000 بنوميديا
- من 15000 إلى 20000 بموريطانيا[36]

وبخصوص التفاوت الملاحظ بين معتنقي المسيحية، في المقاطعات الثلاث المذكورة أعلاه، فهذا يدل على أن السبب في ارتفاع عددهم بالبروقنصلية يعود إلى الاستقرار السياسي الذي تميزت به هذه الأخيرة، مقارنة بمقاطعتي نوميديا وموريطانيا اللتان عرفتا اضطرابات وثورات ضد الاحتلال الروماني.

---

[36] - Gascou (J), la politique municipale de l'empire Romaine en Afrique prolosulaire Paris, 1973, PP, 19-22.

ويبدو أن الفراغ الروحي، الذي كان يتخبط فيه سكان المغرب القديم والتناقض الذي ميز مختلف المعتقدات المعروفة آنذاك، ودعوة المسيحية إلى الإيمان بالإله الواحد، كل هذه الأمور مجتمعة كان لها دور لا يستهان به في انتشار هذه الديانة في المغرب القديم[37].

كما يظهر أن الأوضاع الاقتصادية المزرية التي كانت تتخبط فيها مقاطعات المغرب الروماني ساهمت في إسراع المضطهدين من قبل الإدارة الرومانية إلى اعتناق المسيحية نظرا لما كانت تدعو إليه من تسامح[38].

ولما كانت البنية الهرمية لسكان المغرب الروماني على شكل طبقات اجتماعية متباينة، فقد تضرر البسطاء دون سواهم من تردي الأوضاع الاقتصادية وهو ما جعلهم يحلمون بغد أفضل من خلال اعتناقهم للمسيحية كونها ديانة التسامح، والمساواة والعدالة الاجتماعية، وقد مثلث المسيحية الوسيلة التي عبر بها هؤلاء البسطاء عن رفضهم للسلطة الرومانية، وطريق خلاصهم منها، ونبذ عبادة الإمبراطور، وما ترتب عليها من تبعية للسلطة الرومانية[39].

كما يبدو أن الفوارق الاجتماعية تقلصت بفعل اعتناق المغاربة القدماء للديانة المسيحية، واقتطع الأثرياء من معتنقيها جزءا من ثروتهم لمساعدة البسطاء، وفي هذا الصدد يذكر تارتلياس بأن النصارى الأوائل كانوا يتقاسمون الممتلكات، وكل شيء بينهم مشترك فيما عدا الأزواج[40].

وما من شك في أن اعتناق المغاربة القدماء للديانة المسيحية، وبخاصة منهم البسطاء كان نتيجة للأوضاع المزرية التي عرفها هؤلاء في حين يرجع تمسح الأغنياء، والأرستقراطيين بفعل الفراغ الروحي الذي كانوا يتخبطون فيه، وهو ربما ما يفسر العدد الهائل من معتنقي

---

[37] - Ibid, P 22

[38] - محمد البشير شنيتي، (سياسة الرومنة)، المرجع السابق، ص ص133 - 136

[39] - Gsell (ST), H.A.A.N.T8, P 161

[40] - Mesnage (P.T), la Romanisation de l'Afrique du Nord, Paris, 1913, P 102.

المسيحية من الطبقات الدنيا، وهي المحرومة من كل شيء مقارنة بالطبقات الميسورة[41].

إذن يمكننا القول بأنه نتيجة للعوامل الاقتصادية والاجتماعية التي كان يتخبط فيها سكان المغرب القديم في العهد الروماني، ونظرا لفحوى الديانة الجديدة القائمة على المساواة الاجتماعية والتسامح السائدين بين معتنقيها، بالإضافة إلى دور المسيحيين في رعاية اليتامى وتربيتهم، وإسعاف المرضى والمحتاجين ، وإعالة عائلات من زج بهم في سجون السلطات الرومانية، بسبب اعتناقهم للديانة المسيحية، وجد النظام الكنسي مجالا فسيحا لإرساء وجوده، وسارعت كثير من طبقات مجتمع المغرب القديم المختلفة إلى اعتناق المسيحية[42].

ويبدو أن تعايش الديانة المسيحية مع العبادات الوثنية السابقة، ظل يسود جل المغرب القديم إلى وقت متأخر نسبيا، وهو ما يمكن استخلاصه من خلال إصرار كهنة حمون في القرن الثالث الميلادي على التقرب من هذا الإله بالأضاحي الآدمية[43].

3 – روما وحركة التنصير

ـ الاضطهاد الديني:

التزم المسيحيون الأوائل في المغرب القديم، الصمت والسرية تجنبا لإثارة السلطة الرومانية، التي سخرت كل الوسائل المتاحة، واعتمدت على كل الأساليب لفرض عبادة الإمبراطورية، وقد كان المسيحيون الأوائل يمارسون شعائرهم بحرص شديد، حيث يجتمع هؤلاء في كل مرة، بمنزل مختلف عن سابقيه يتناقشون فيما توصلت إليه عملية التبشير، ويتذاكرون وصايا وتعاليم المسيح[44].

---

[41] - Albertini €, Marcais (G), pregenet (E) L`Afrique du Nord Française dans l`Histoire 1955, P 60.

[42] - Ahmed (S), Op Cit, P 348

[43] - Diehl (GH), la civilisation du Maghreb Romain de la préhistoire a la fin des Byzantins Paris, 2002, P 241.

[44] - Battifol (P). OP Cit, P 118- 119

ويبدو أن العلاقة بين المسيحيين وغيرهم من يهود ووثنيين، تدهورت شيئا فشيئا، لتتميز بالتوتر والنزاع في أحيان كثيرة، حيث خشيت الطائفة اليهودية ذات النفوذ المادي الكبير على مصالحها بالمغرب القديم، وهو ما جعلها تحاول الضغط على السلطة الرومانية، لتقييد نشاط الحركة التبشيرية، ويشير ترتليانوس في هذا الصدد إلى الوشاية والأذى الذي لقيه المسيحيون من هؤلاء، بعدما كانت السلطة الرومانية تتعامل بنوع من التسامح مع المسيحيين، وقد تصدى الإمبراطور تراجانوس إلى الوشاة بقرار ضد من صرح بتنصره والمبشرين بهذا الدين، ومحاولة توجيه هؤلاء لعبادة الإمبراطور تأمينا لهم من المحاكمة وما ينجم عنها من عقاب[45].

وقد عرفت حركة التبشير بالديانة المسيحية، مرحلة جديدة إثر تولي الإمبراطور كمودوس الحكم في منتصف القرن الثاني للميلاد، فتزايد عدد معتنقي هذه الديانة وجهرهم بها، مما ترتب عليه ازدياد اضطهاد السلطة الرومانية لهم، وهو ما يظهر جليا من خلال محاكمة مسيحيي قرية(SCILLIUM)عام 180م حيث أعدم على إثرها اثنا عشر فردا منهم[46].

لقد شكلت مبادئ الإنسانية والمساواة التي تدعو إليها المسيحية، خطرا على سلطة الاحتلال في المغرب القديم، بل أصبحت تهدد كيان النظام الإمبراطوري، حتى في روما، فضاعفت السلطة من عمليات الاضطهاد وألقى الإمبراطور سبتموس سيفروس بالمسيحيين إلى الوحوش الضارية في ألعاب السرك والمدرجات بعد أن استعصى عليه التحكم في تكاثر أعدادهم[47].

غير أن خلفه من آل سفيروس عادوا إلى سابق عهدهم، بالتعايش مع المسيحية وهو الأمر الذي شجع هؤلاء الآخرين لمضاعفة نشاطهم التبشيري ، كما حاول هؤلاء أخذ العبر لهم مع السلطة

---

[45] - Pirenne, OP Cit, P 98.
[46] - Mommsen, OP Cit, P 88- 89
[47] - Gsell (ST), (la republique romaine…) OP Cit, P 58.

الرومانية، و عليه فقد أعادوا تنظيم الجهاز الكنسي، وأوجدوا أسقفيات جديدة[48].

لم تدم فترة التسامح التي ميزت عهد خلفاء سبيتموس سيفيوس من السيفيرين حتى آلت الإمبراطورية إلى دقيوس (DECIUS) الذي حمل المسيحيين مسؤولية تدهور الأوضاع الداخلية وكثرة الاضطرابات في ربوع الإمبراطورية، وسارع إلى إصدار قرار سنة 250م فرض من خلاله على المسيحيين العودة إلى ممارسة شعائر الديانة الرسمية، وهو الأمر الذي علق عليه ترتليانوس قائلا: " لم يكن يمضي يوم إلا وقد زج بالمسيحيين في السجون، وهم مع هذا لا يستطيعون تبرئة أنفسهم، ليحكم على بعضهم بالإعدام ويعذب بعضهم الآخر...وبهذا فقد صنعوا المجد"[49].

لقد ضاعف الإمبراطور فلريانوس (VLERIANUS) من اضطهاد المسيحيين، بحيث قام بإصدار منشورين سنة 257م، نص الأول على نفي الأساقفة والرهبان الذين رفضوا الارتداد والرجوع إلى عبادة الأوثان ومنع المسيحيين من ممارسة شعائرهم[50]، بينما نص المنشور الثاني على إعدام رجال الدين المسيحيين، ما لم يعلنوا اعتناقهم للديانة الرسمية، قائلا:" من لا يرتد يقتل ذبحا" وقد أقر هذا المرسوم تجريد أعضاء مجلس الشيوخ والفرسان من المسيحيين من ألقابهم وتنحيتهم من مناصبهم وحجز ممتلكاتهم.

لقد ارتد كثير من المسيحيين على ما يبدو نتيجة التعذيب الذي تعرضوا له ، وعادوا إلى ممارسة شعائر الديانة الرسمية، لاسيما وأنهم أصبحوا يعلنون ارتدادهم قبل محاكمتهم، بل وكان بعضهم يعلنها جهارا في الساحات العمومية[51].

---

[48] - Albertini, OP Cit, P 58.

[49] - Balout, Op Cit, P 15

[50] - محمد البشير شنيتي (سياسة الرومنة)، المرجع السابق، ص 74.

[51] - Gsell (ST), (A. A. A)T1, OP Cit.

وقد شكلت ظاهرة الارتداد عن الدين المسيحي، علامة استفهام بالنسبة للكنيسة، من حيث التعامل مع هؤلاء ودرجة الذنب المقترف، وكيفية دمجهم إن هم عادوا إلى المسيحية[52]، مع الجدل حول قضية تعميد المنشقين [53]، حيث عقدت عدة مجامع دينية، قصد دراسة هذه القضايا ومحاولة إيجاد حلول لها، وكان ذلك بين سنوات 251م و254م ولكن هذه المجامع لم تخرج بحل نهائي[54].

لقد ظلت القضايا المطروحة على المجامع الدينية مع بداية القرن الثالث الميلادي تثير الخلاف بين رجال الدين المسيحيين، حتى القرن الرابع الميلادي، وقد عرف المسيحيون نوعا من التسامح من طرف السلطة الرومانية بخصوص ممارسة شعائرهم في الفترة الممتدة ما بين 259م-303م، أي في عهد الإمبراطور كالوس، بحيث حاولت السلطة الرومانية كسب تأييد المسيحيين للتأثير الإيجابي الذي كان هؤلاء يمارسونه على الجمهور، ومنه فقد أعفت هؤلاء من عبادة الإمبراطور[55].

استغل المسيحيون فترة السلم التي أتيحت لهم، مع أواخر القرن الثالث وبداية القرن الرابع للميلاد، وركزوا جل اهتمامهم على دعم موجة التبشير وتزويد الجهاز الكنسي بخزينة استغلت في التخفيف من معاناة الفقراء واليتامى في المجتمع، بل كان لغير المسيحيين فيها نصيب، ونتيجة لذلك فقد ازداد عدد المعتنقين للمسيحية مع ارتفاع عدد الأسقفيات في أواخر القرن الرابع الميلادي إلى حوالي 250 م منتشرة عبر كامل مقاطعات المغرب الروماني[56].

وبتولي ديوكليانوس (C. A. V DIOCLETIANUS) لأمور الإمبراطورية الرومانية مع نهاية القرن الثالث الميلادي عادت الأوضاع

---

[52] - Grimal, Op Cit, P 11
[53] - Water, OP Cit, P 71
[54] - Gascou (J), Op Cit, P 23
[55] - Gsell, (la repub) OP Cit P 58
[56] - Diehl, Op Cit, P 242

التي كان عليها المسيحيون إلى ما كانت عليه قبل النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي. فقد قام ديوكليانوس بإصدار أربع قرارات في الفترة ما بين 303م- 304م تضمنت:

- **القرار الأول** نص على :
- عدم السماح للمسيحيين بعقد الاجتماعات وتأدية الشعائر.
- هدم الكنائس وحجز الأدوات المستعملة في الطقوس.
- مصادرة الأملاك العقارية وبيع قسم منها بالمزاد العلني، وضم القسم الأخر إلى أملاك الإمبراطورية.
- حرق الكتب المقدسة وسجن رجال الدين.
- **القرار الثاني:**
- حرمان المسيحيين من حقوق المواطنة وحماية الدولة لهم.
- طرد المسيحيين من الوظائف الحكومية مهما كانت رتبتهم في السلك الوظيفي أو مركزهم الاجتماعي.
- عدم السماح للمسيحيين بالترافع أمام المحاكم للدفاع عن أنفسهم.
- **القرار الثالث:**
- الارتداد عن الدين المسيحي، وتقديم القرابين لآلهة الديانة الرسمية للسلطة الرومانية، ورفض الامتثال لهذا القرار يعرض صاحبه للموت أو العمل بالمناجم[57].

والظاهر حسب إيمار أن الإمبراطور دقليانوس كان يصبو من خلال إصداره للقرارات التي تحد من نشاط المسيحيين إلى تحقيق الوحدة السياسية، بإلغاء التسامح الذي استغلته الكنيسة في تقوية نفوذها واستبداله بالاضطهاد ليتمكن من إحداث الوحدة في المعتقدات المختلفة، في أوساط المغرب القديم حول عبادة الإمبراطورية[58].

وقد تبين للسلطة حقيقة المسيحية، من خلال تمكنها من استقطاب عدد كبير من الأنصار، الذين أدركوا التناقض الكبير بين واقعهم في ظل السلطة الرومانية، وبين النظام الذي أقامته هذه الديانة بين أوساط

---

[57] - Battifol, Op Cit, P 119
[58] - IBid, P 122

معتنقيها، والذي كان مضمونه مبادئ إنسانية تقوم على الأخوة والمسالمة، والتعاطف، وكانت المسيحية تدعو بعدم العنف ورمي السلاح، لأنه يضر بالآخرين، وهو ما دفع بالمتنصرين من أفراد الجيش إلى عصيان أوامر قادتهم، وامتناع بعض الجنود عن الانخراط في الجندية المفروضة عليهم بالوراثة مع عدم الاكتراث بالعقوبات المسلطة عليهم من حرق وتصليب أمام الجمهور. فأصبحوا من الشهداء الذين يقتدى بهم في التضحية من أجل العقيدة، فتسابق الكثيرون للفوز بهذا المجد، وكانت نظرية ترتوليانوس تقول إن المسيحي لا يدخل الجيش ولا يمكن أن يكون جنديا، وإن اعتنق الجندي المسيحية فإن أفضل ما يقوم به هو الفرار. ولم تتوقف السلطة عن اضطهاد المسيحيين الذين فضل بعضهم التضحية في سبيل دينه، في حين ارتد آخرون لضعف إيمانهم، وشده الاضطهاد الذي سلط عليهم في أبشع صورة[59].

ونجمت إثر ذلك الأزمة الكبيرة التي عرفت في تاريخ الكنيسة بالانشقاق الديني، مع نشوب خلافات بين رجال الدين المسيحيين، وانتشار ظاهرة الهرطقة. إلا أن موقف السلطة الرومانية، تغير بعد ذلك نتيجة فشلها في القضاء على المسيحية ، ودفعها إلى أن تنتهج سياسة التحالف معها بعد أن أدركت دورها في التأثير الواسع في أوساط الشعب[60].

ويبدو أن السلطة الرومانية أصبحت تتسامح مع المسيحيين، فقدمت لهم تسهيلات وساندت حركتهم التنصيرية، بكل الوسائل لينتشر في أوساط السكان، وهو الموقف الثاني للسلطة من حركة التنصير في المغرب القديم[61].

ـ روما واعترافها بالمسيحية

لقد عرفت الكنيسة مرحلة جديدة بتغير موقف السلطة الرومانية منها، وذلك بعد إعلان الإمبراطور قسطنطين الأكبر عن اعتناقه

---

[59] - Mommsen, Op Cit, P 90
[60] - Albertini, Op Cit, P 56
[61] - Ibid, P 57

المسيحية عام 312م، وتبع ذلك وقف عمليات الاضطهاد الديني، والعمل على نصرة المسيحيين ومباركة حركة التبشير المسيحي[62].

غير أننا قبل أن نتناول السياسة التي اتبعها هذا الإمبراطور، والذي قال عنه المؤرخون إنه داهية في الحكم، ذو بصيرة فاق بها من سبقه[63]، نحاول عرض الأسباب التي دفعت به إلى إعلان تنصره، والتي تعد من بين القضايا الغامضة في تاريخ الكنيسة. فقد اختلفت الآراء وتعددت أسباب اعتناق هذا الإمبراطور للمسيحية، ويالغ بعض المؤرخين في إبراز الأثر الذي أحدثه تنصره، خاصة منه النصر الذي أحرزه على منافسيه، وكان أشدهم بأسا شريكه مكسانس (M. A. V. MAXENCE) إذ يرجع بعضهم النصر الذي ظفر به على هذا الأخير يوم 28 أكتوبر 321م إلى اعتناقه المسيحية[64].

في حين يرى البعض الآخر من المؤرخين العلمانيين أن اعتناق الإمبراطور قسطنطين للمسيحية كان نتيجة رغبته في تغيير الأوضاع المضطربة والتخفيف من حدة التوتر الذي ساد الإمبراطورية بعد ظهور هذه الديانة في أوساط سكان الإمبراطورية الرومانية، وسرعة انتشارها[65]. وأكثر ما يؤكد هذا الرأي تلك القرارات التي أصدرها هذا الإمبراطور في حق هذه الديانة وأولها نص ميلانو، المتضمن دعوته جميع ممثلي الأسقفيات في الغرب الروماني إلى الاجتماع عام 313م بمدينة ميلانو (MILANO) الإيطالية، وهو تجمع كان بمثابة مؤتمر سياسي هيمنت عليه إرادة الدولة وحضره شريك قسطنطين في الإمبراطورية (ليكينوس) (Licinius)، وجاء في لائحة الختام التي سميت ببراءة ميلانو ما يلي : " بعد البحث بكل عناية فيما يمكن أن يكون نافعا لخير وسلامة الدولة، وعما يمكن أن يؤدي خدمة لأكثرية الناس رأينا وجوب تسوية كل ما هو

---

[62] - Balout, Op Cit, P 11
[63] - Grimal, Op Cit, P 10
[64] - Ibid, P 11
[65] - Pérenne, Op Cit, P 70

مختص بالاحترام الواجب للذات الإلهية قصد تمكين المسيحية كافة المواطنين من حرية ممارسة الدين الذي يختارونه"[66].

وما نستخلصه من هذا النص، هو منح الإمبراطور المواطنين الحرية في اختيار المعتقد، وإلغاء كل ما من شأنه أن يلحق الأذى بالمسيحية، من قرارات صادرة ضدهم، وبهذا فقد استطاع قسطنطين تحقيق ما عجز الأباطرة السابقين عن تحقيقه بقوة السلاح، حيث أصبح يعمل على كسب تأييد الكنيسة، والتمهيد للتحالف معها لعله يتمكن بذلك من القضاء على الاضطرابات التي تسبب فيها المسيحيون[67].

استمر قسطنطين في العمل بقرارات هذا النص، حتى بعد انتزاعه العرش من شريكه ليكينيوس سنة 324م، فهو لم يفضل أي ديانة عن الأخرى من الديانات التي كانت سائدة في مختلف أنحاء الإمبراطورية خاصة وانه كان يستفيد من خدمات عدد من الوثنيين الأثرياء لصالح السلطة.

وهو ما يزيد في قوة الحجة الثانية التي تميل إلى اعتبار تنصره إنما كان لرغبة سياسية، بتحويل الكنيسة إلى جهاز إيديولوجي قوي التأثير على الرعية لخدمة مصالح الدولة[68].

وقد أمر قسطنطين، تطبيقا لما جاء من قرارات في براءة ميلانو بإعادة ممتلكات الكنيسة لأصحابها، والسماح للمسيحيين بممارسة شعائرهم الدينية ، وتعويضهم عما فقدوا من ممتلكات، كما أمر بتمويل الكنيسة وبتخصيص جزء من دخل كل إقليم لفائدتها لمباشرة أعمالها الخيرية، من صرف المساعدات المالية للفقراء واليتامى، وتغطية مصاريف رجال الدين[69].

لقد أعفى قسطنطين رجال الدين المسيحيين من أعمال السخرة، حتى يتسنى لهم ممارسة شعائرهم الدينية، ومنحوا حق الانخراط في

---

66 - Walter, Op Cit, P 70.
67 - Ibid, P 71
68 - Messnage, Op Cit, P 104
69 - Ibid, P 106

المجالس البلدية، مع عدم أداء الوجبات المفروضة على جميع أعضاء هذه المجالس، وقد أدى هذا الامتياز الذي حظي به رجال الكنيسة المنخرطين في هذه المجالس، إلى تسابق غيرهم من أعضاء ذات مجالس الوثنيين إلى اعتناق المسيحية، بعد أن كانوا من أشد المعارضين لها، رغبة منهم في الاستفادة من الامتيازات، التي منحتها السلطة الإمبراطورية المسيحية للمسيحيين دون سواهم، ومن بينها عطلة يوم الأحد، وشرعية العتق الذي يتم على يد رجال الدين ، وحق ممارسة السلطة القضائية على أعضاء إكلير وسهم (هيئة الكهنة) من دون قاضي البلدة[70].

والظاهر أن المسيحيين قد استفادوا استفادات جمة من هذه الامتيازات، التي حرم منها غيرهم من ذوي المعتقدات الأخرى[71] .فقد كان تنصر الإمبراطورية عاملا مشجعا على انتشار المسيحية، حيث أخذ أثرياء ووجهاء الدولة، وهم الذين كانوا يشكلون طبقة النخبة في المجتمع يعلنون تنصرهم إقتداءً بسيد العالم، فقويت الكنيسة سياسيا، وأصبح أتباعها من كبار الملاك، وراح الأثرياء يغدقون عليها من أموالهم تزلفا لرجالها وطلبا للغفران، فارتفع رصيدها الاقتصادي، وتشكلت طبقة اجتماعية مرموقة من رجال الدين[72] ،وأصبحت هذه الطبقة بدورها تضطهد العناصر الوثنية، ومختلف النحل الدينية الأخرى التي طالما اضطهدتها.

وبرزت من هنا بوادر انحراف الكنيسة عن مبادئها الإنسانية، التي نادت بها مع بداية ظهورها، وفقدت بالتالي قيمتها المعنوَية لدى الطبقة المحرومة التي كانت وقودا لنيران الاضطهاد من قبل، وأصبحت مؤيدة للسلطة الرومانية القائمة على الاستبداد والظلم الذي طالما عارضته بالتضحيات من أجل ترسيخ مبادئ المسيحية في نفوس المقهورين، وإذا كانت غالبية رجال الدين من الفئة المعتدلة قد رضيت

70 ـ محمد البشير شنيتي،(سياسة الرومنة)، المرجع السابق، ص137.

71 ـ نفس المرجع، ص138.

72 - Ahmed (S). P 349

بهذه الوضعية، فإن الأقلية المتطرفة رفضت ذلك التحول[73] الذي عرفته الكنيسة بعد أن تخلت هذه الأخيرة من وجهة نظرهم عن مبادئها وتحالفت مع السلطة .وهذا ما أدى إلى ظهور الانشقاق الديني، وانقسام المسيحيين في المغرب القديم إلى فريقين، الأول موالي للسلطة تمثله الكنيسة الكاثوليكية، والفريق الثاني معارض للنظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي، تتزعمه العناصر المنشقة عن الكنيسة والذي عرف في تاريخ الكنيسة بالحركة الدوناتية.

ـ الانشقاق الديني في المغرب القديم وأثره:

قبل التطرق إلى عوامل الانشقاق الديني، الذي تزعمته الحركة الدوناتية يجدر بنا التعرف عليها . فهي تيار معارض مستقل، معارض للسلطة الرومانية والكنيسة الرسمية، حافظ على المبادئ الأصلية للمسيحية التي ضحى لأجلها الشهداء الأوائل، ورفض أصحاب هذه الحركة التعاون مع السلطة، والامتثال للإمبراطور الذي اتخذ من تنصره عاملا ووسيلة لبسط نفوذه في منطقة المغرب القديم[74].

لقد تزعمت الحركة الدوناتية العناصر المنشقة عن الكنيسة الرسمية والتي اتخذت طابعا إيديولوجيا معاديا ومعارضا للسلطة والنظام السياسي الروماني . وقد أطلق على الحركة هذه التسمية نسبة إلى زعيمها(DONATUS) دوناتوس من قرية ديار السود[75] الذي كان له دور هام في تأسيس هذه الكنيسة، والشخصية الثانية هي الأسقف دوناتوس القرطاجي المعروف بدوناتوس الكبير الذي نظم هذه الحركة[76] وقاوم أساقفة كنيسة قرطاجة التي رضيت بقوانين السلطة الرومانية وقبلت شروطها التي رأى فيها دوناتوس خيانة عظمى للشهداء الأوائل، وقد تمكنت الحركة الدوناتية من استقطاب جموع كبيرة من المسيحيين

---

73 - Bordet, OPCit, P 64
74 - Alfanic, Op Cit, P 181
75 - Ibid, P 183
76 - Ibidem

المخلصين، في بداية القرن الرابع الميلادي 5 مارس 305م إثر القرار الذي أصدره مجمع كيرنا الذي هيأ الأرضية لظهور الدوناتية في شمال إفريقيا[77]، ومنه فقد اعتبرت هذه الحركة تعبيرا صريحا عن التمسك القوي بتعاليم المسيحية الحقة[78].

لقد تعددت عوامل ظهور الحركة الدوناتية أو الانشقاق الديني في المغرب القديم[79]، فبعضها يعود إلى اضطهاد دقليانوس للمسيحيين وبعضها الآخر إلى أحداث قرية أبيتينا في البروقنصلية سنة 304م، والتي تسببت في تجدد العناصر المرتدة أثناء الاضطهاد وتسليم الكتب المقدسة، وهو ما شجع على ما يبدو العناصر الرافضة لعودة المرتدين عن المسيحية على تأسيس كنيسة ضمت أولئك الذين صمدوا في وجه الاضطهاد. غير أن دور المجمع وقراراته لم تكن السبب الرئيسي في ظهور الدوناتية، وذلك لعدة أسباب[80] أهمها فشل الأساقفة في إيجاد حل لقضية الارتداد ووجود عناصر مرتدة في صفوف الدوناتيين أنفسهم، وهو ما أفقد المجمع دوره الديني، وبالتالي فإن وجود عناصر مرتدة من الدوناتيين، الذين كانوا ينادون بضرورة الانفصال عن الأسقف الكنيسة الرسمية لا يسمح لنا بإعطاء مجمع كيرتا الدور الرئيسي في ظهور الدوناتية[81].

وهذا يعني أن هناك عوامل أخرى، ساهمت في ظهور الانشقاق الديني والانفصال عن الكنيسة والكاثوليكية ، وما ظهور الدوناتية إلا امتداد للعوامل التي ساهمت في انتشار الديانة المسيحية ابتداء من القرن الثاني الميلادي[82] . ويمكن حصرها أساسا في العداء القومي للهيمنة الرومانية بالإضافة إلى العوامل الاجتماعية والاقتصادية من تردي الأوضاع الاقتصادية، وظروف الحياة القاسية التي تضرر منها غالبية

---

77 - Cagnat, Op Cit, P 22
78 - Ibid, P 23
79 - Dion Cassius, Op Cit, P 26
80 - Ben Abou (M), des cultes romains, 1970, P 60
81 - Ibid, P 63
82 - Saxer (V), Saints Ancien d` Afrique du Nord, 1979, P 11.

سكان المغرب القديم، حيث اجتمعت هذه العوامل إلى جانب التحول الذي عرفته الكنيسة الدوناتية وانتشارها في المغرب القديم[83].

ويبدو أن هذه التحولات قد تركت شعورا بالامتعاض وسط الفئات المحرومة من السكان الذين رأوا في الكنيسة الجهاز السلطوي المسخر لخدمة مصالح سلطة الاحتلال، وبالتالي لا يمكن الاعتماد عليها لتحسين أوضاعهم الاجتماعية، والاقتصادية التي كانوا يعانون منها، لذا أصبح الانضمام للدوناتية الحل الوحيد في نظر المنفصلين عن الكنيسة الكاثوليكية لتحقيق مآربهم، وهو ما يؤكد طابع الحركة المعادي للسلطة الرومانية ونظامها السياسي في الاستيلاء على الأراضي وفرض الضرائب المجحفة على المغاربة، خاصة بعد امتداد خط الليمس نحو الجنوب وتكثيف المراكز العسكرية.

أما العوامل الاجتماعية فقد مثلها الحصار الاجتماعي الذي ترتب عنه الحصار الوظيفي، حيث كان المتضررون من هذه السياسة كمثيرون ، منهم الفلاحين البسطاء والعاطلين والفئات الفقيرة، وحتى أعضاء المجلس البلدي لم ينجوا من تبعات هذه السياسة وكانوا يفقدون أراضيهم عنوة، وكذلك العقوبات المسلطة على الذين خرجوا من مدنهم دون إذن.

وعن العوامل السياسية فتكمن في الاضطرابات التي شهدها المجتمع المغربي القديم بداية من القرن الرابع الميلادي، والتي تمخضت من خلالها فكرة المعارضة للسيطرة الرومانية وسخط السكان الأصليين، حيث شجعت كل هذه العوامل على قطع الصلة بكل ما له علاقة بالسلطة الرومانية، وأولها الكنيسة الكاثوليكية التي اعتبرت الممثل الفعلي للجهاز السياسي.

وهكذا وجد الدوناتيون في حركتهم الممثل الشرعي وأفضل معبر عن إرادة الأهالي المقهورين بعدما اجتمعت حولهم جموع كبيرة من المسيحيين المنشقين عن الكنيسة الكاثوليكية، التي كانت في نظرهم المنشق الحقيقي عن المسيحية لأنها تخلت عن مبادئها الأصلية[84].

---

[83] - Ibid, P 12.

[84] - Georger (A), l`église de l`Afrique du Nord, 1991, P 32.

ج – سياسة روما تجاه الحركة الدوناتية:

لقد تبين موقف السلطة الرومانية من الحركة الدوناتية، عبر مرحلتين امتدت المرحلة الأولى من سنة 313م إلى 347م، وشملت المرحلة الثانية، الفترة الممتدة من 347م إلى 412م فهي الحد الفاصل الذي ظهر من خلاله التغير في موقف السلطة السياسية من الحركة الدوناتية[85].

1 – الموقف الأول:

تميزت هذه المرحلة بمعارضة السلطة الرومانية لهذه الحركة من خلال القرارات التي أصدرتها ضدها[86]، ومنها القرار الذي أصدره قسطنطين سنة 313م والذي يؤيد فيه رجال الكنيسة الكاثوليكية بإعفائهم من أعمال السخرة، حيث دفع هذا الموقف بالدوناتيين إلى طرح قضيتهم أمام أساقفة أجانب[87]، مشيرين إلى جرائم الإمبراطور ديكليانوس،ومؤكدين أن موقف البابا قد خيب آمالهم بإدانته لدوناتوس وحركته . فاحتج الدوناتيون وطالبوا بعقد مجمع آخر يشرف عليه أساقفة جدد فاستجاب قسطنطين لهذا الطلب، إلا أنه هو الآخر كان ضد الدوناتيين حيث طلب من الدوناتيين الامتثال لقرارات السلطة السياسية، لكنهم رفضوا ذلك، وطالبوا مرة أخرى من قسطنطين التدخل لحل الخلاف بينهم وبين الكنيسة الكاثوليكية فاستجاب لطلبهم، إلا أنه أدانهم في الأخير وحاول القضاء عليهم من خلال القرارات التي كانت تفرضها المجامع الدينية. وبعد فشل محاولات تطبيق القرارات غيرت السلطة سياستها تجاه الدوناتيين، بتبنيها حملة اضطهادية ضدهم، لكن نتائج الاضطهاد جاءت معاكسة لما خططت له السلطة حيث كثر مناصروهم، وقويت حركتهم بحيث أصبحت تشكل خطرا على السلطة الرومانية ، ورأت هذه الأخيرة فيها المصدر الرئيسي للفوز في المنطقة، ويكمن

---

[85] - Ibid, P 33

[86] - Freud (W.H.C), the donatist of protestin Remain North Africa, Ex Ford press, 1952, P 331

[87] - Ibid, P 332.

السبب الرئيسي في تأخر السلطة في اتخاذ هذه السياسة إلى الاضطرابات التي كانت تعرفها الإمبراطورية وقتئذ [88]، وإلى تخوف السلطة من نتائج سياسة الاضطهاد وصعوبة تحقيق الوحدة السياسية الدينية من جديد في المنطقة[89].

لكن يبدو أن سياسة الاضطهاد هي الأخرى لم تتمكن من القضاء سوى على ثلاث كنائس دوناتية بقرطاجة، ولعل هذا ما دفع بالسلطة إلى تغيير موقفها من هذه الحركة، وإعلان التسامح معها من خلال القرار الذي أصدره قسطنطين سنة 321م والذي سمح بموجبه للدوناتيين بممارسة طقوسهم والاحتفاظ بكنائسهم وعودة أساقفتهم المنفيين، وذلك رغبة من الإمبراطور في إعادة الاستقرار إلى المنطقة، فنعم الدوناتيون بموجب هذا المنشور بفترة من السلم واستفادوا من الاضطرابات التي كانت تعرفها المنطقة حيث وظفوها لصالحهم.

2 – الموقف الثاني:

تبدأ بحملة إعادة الوحدة الدينية في شمال إفريقيا من خلال سياسة الإغراء التي جاء بها الإمبراطور قسطنطين لإعادة الوحدة بتقديم مساعدات مالية للدوناتيين في محاولة منه لشراء ذممهم لعلهم يتخلون عن حركتهم، إلا أن موقف دوناتوس كان عكس ذلك إذ رأى في ذلك تدخلا من الإمبراطور في شؤونهم الدينية، ونشير هنا أن موقف الدوناتيين قد اختلف من مقاطعة لأخرى بين رافض ومؤيد. كما استفاد الدوناتيون من تسامح الإمبراطور جوليان الذي أعاد لهم كنائسهم التي صودرت بموجب القرارات السابقة[90] وانتهزوا فرصة التسامح للانتقام من الكاثوليكية، بمساعدة شخصيات سياسية، كمساعدة (ATHNIUS)، حاكم موريطانيا القيصرية عندما حاول الدواناتيون في سنة 362م، ولكن مع تولي الإمبراطور فالنتينيان(F. VALENTINIEN)وغراتيان (F. GRATIEN) تجدد عهد الاضطهاد[91]، وكذلك الإمبراطور هنوريوس(F. HONORIUS)

---

88 - Ibid, P 333

89 - Messnage, Op Cit, P 21

90 - Freud (W.H.C), Op Cit, P 340

من خلال القرارات التي أصدروها ضدهم ورغم محاولات السلطة القضاء على هذه الحركة إلا أنها لم تتمكن من ذلك فقويت وتضاعف نشاطها ضد الكاثوليك وأصبحت تشكل خطرا يهدد تحالف السلطة والكنيسة الكاثوليكية الإفريقية[92].

هـ – موقف الكنيسة الكاثوليكية من الكنيسة الدوناتية:

قاوم الدوناتيون خصومهم الكاثوليك بقطع العلاقات معهم، واستخدام العنف ضدهم، أما بالنسبة للكاثوليك فقد تباينت مواقف المجامع الكاثوليكية من الدوناتية الأخرى ومرت بمرحلتين.

تميزت المرحلة الأولى بالضعف تجاه هذه الحركة في حين عرفت المرحلة الثانية نشاطا، وذلك منذ تولي أغسطس السلطة الدينية بمدينة عنابة سنة 392م[93]، وقد انتهز فرصة رفض المسيحيين الانضمام إلى الكنيسة الدوناتية بسبب إعادة التعميد لجلب المزيد من الأتباع، كما سمح للدوناتيين الذين يعودون إلى الكنيسة الكاثوليكية ضمن المدنيين وإبقائهم في مناصبهم الدينية السابقة، كما اقترح عليهم من خلال مجمع سنة 348 إمكانية تعيين الكهان من بين الذين في صفوفهم بالنسبة للدوناتيين[94].

وظلت الكنيسة الكاثوليكية منذ ظهور الدوناتية تستشير كنائس ما وراء البحار، فيما تتخذه من إجراءات لمواجهة الدوناتية بحيث لا تسرع باتخاذ أي إجراء دون موافقة الكنائس[95].

ولحل الخلاف السائد بينهما وبين الدوناتية ، ولوضع حد للصراع الذي كانت تعيشه الإمبراطورية، رأت الكنيسة الكاثوليكية الدخول في مفاوضات، ومناقشات علها تخمد الأوضاع، وتضمد الجراح لكن هذا المشروع انتهى بالفشل، فبادرت الكنيسة الكاثوليكية إلى طلب الحماية من الإمبراطور بعدما كثرت محاولات الاغتيالات التي تعرض لها أتباعها، طالبة إعادة الوحدة الدينية بموجب تحالفها مع السلطة، ورغم كل المحاولات لم تنجح في وضع حد للحركة الدوناتية رغم كل المحاولات، ومهما يكن فإن قوة الحركة الدوناتية والخطر الذي شكلته على السلطة الرومانية منذ ظهورها لم يدم، حيث ضعفت الحركة وبدأت

الكنيسة الدوناتية تعيش مرحلتها الأخيرة التي تميزت بالضعف بسبب الانقسامات الداخلية التي عرفتها الحركة بمجرد وفاة زعيمها دوناتوس ليبدأ الصراع بين زعماء الدوناتية وانشغالهم بذلك عن مواصلة نشاطهم بنفس الحماس الذي عرفوا به وهناك أسبابا أخرى تعود إلى التطورات التي تعرفها هذه الحركة أثرت عليها وساهمت في إضعافها، هذا وتواصلت الصراعات التي ميزت علاقتها بالمقاطعات الدينية في إطار النشاط الديني العام.

قائمة المصادر و المراجع

- 1- Tacite, Annales, Trad. H. Borneque, 1965, TIII, 74.

-2- Ibid,VI, 23, Cagnat (R), L'Armée romaine d'Afrique et l'occupation militaire sous les empereurs, 1913, P20 .

3 - محمد البشير شنيتي، سياسة الرومنة، الجزائر، 1985، ص ص 99-116.

- 4- Albertini (E), Marcais (E), pergent (E) , l'Afrique du nord Française dans l'Histoire, Alger, 1955, P 60.

- 5- Gsell (st), H. A. A.N.T1, P 160, T5. P123.

- 6- Gsell (87), la tripolitaine et le Sahara au 3e s. de notre ère, CRAT, 1962, PP 149- 166.

- 7- Pline l'Ancien, Histoire Naturelle, V2, trad. J. desanges coll. Unive, de France, 1980, P 83.

- 8- Bordet (M), precis de l'Histoire romaine, Paris 1963, P58.

- 9 - Mommsen (T. H), Histoire romaine, P162 .

- 10- Gsell (87), (H. A.A.N), OPCit, T7, PP77- 79.

- 11 Dion Cassius, Histoire romaine, Ed, Boissrain, 1955, LXI, 25.

12 - محمد البشير شنيتي، الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، الجزائر، 1999، ص ص 53- 60.
13 - محمد البشير شنيتي، (سياسية الرومنة)، المرجع السابق، ص ص 47- 73.
14 - هشام الصفدي، تاريخ الرومان القاهرة 1977 ص ص 104- 221.
15 - نفس المرجع، ص 200.
- 16- S. AFanic, l`évolution intellectuelle romaine, Paris 1970, P 180.
- 17- Gsell (ST), PFlaum (H.G), inscriptions latine de l`Algérie (CILA), Paris 1922, P 66.
18 - عبد الوهاب (حج)، خلاصة تاريخ تونس، ط3، 2000، ص 18.
- 19 - A LFanic, op Cit, P 165.
-20- AHMEd, (S), Berbers et christianisme, Paris 1982, P 358.
- 21- BAtifol (P0, le catholicisme de St Augustin.-
- 22- Pirenne (G), les grands courants de l`Histoire universelle, Paris 1960, P 118.
- 23- Faid herbe (G), collection complète des inscriptions numidique, 1870.
- 24- Ibid, P
- 25- Will manns (G), Mommsen (TH), C. I. L, VIII, 5 supp, Berlin, 1881.
26- -Battifol (P), Op Cit. P 83.
- 27- Gsell (ST), la république romaine et les rois indigeres, TVII du H.A.A.N., Paris 1956, P92.
- 28 - Albutini €, A. N. F. H, OP Cit, P 55.
- 29 - Grimal (P).
- 30- Balout (L), Vint cinq Année d`Histoire Algérienne, Paris, P 10.
31 - محمد البشير شنيتي، (سياسة الرومنة)، المرجع السابق ص ص 68- 72.

- 32 - Gsell (ST), A.A.A., T1, OP Cit,
- 33 - Pline l`Ancien, OP Cit, P5, 11.
- 34 - Grimal (P), OP Cit, P8.
- 35- Walter (G), césar, Marabout, univ, Paris, 1964, P 369.
- 36- Gascou (J), la politique municipale de l`empire Romaine en Afrique prolosulaire Paris, 1973, PP, 19-22.
- 37 - Ibid, P 22.
38- محمد البشير شنيتي، (سياسة الرومنة)، المرجع السابق، ص ص 133 - 136 .
- 39 - Gsell (ST), H.A.A.N.T8, P 161.
- 40-MESnage (P.T), la Romanisation de l`Afrique du Nord, Paris, 1913, P 102.
- 41- Albertini €, Marcais (G), pregenet (E) L`Afrique du Nord Française dans l`Histoire 1955, P 60.
- 42 - Ahmed (S), Op Cit, P 348.
-43-Diehl (GH), la civilisation du Maghreb Romain de la préhistoire a la fin des Byzantins Paris, 2002, P 241.
- 44- Battifol (P). OP Cit, P 118- 119.
- 45- Pirenne, OP Cit, P 98.
- 46- Mommsen, OP Cit, P 88- 89.
- 47- Gsell (ST), (la republique romaine...) OP Cit, P 58.
- 48 - Albertini, OP Cit, P 58.
- 49 - Balout, Op Cit, P 15.
50 - محمد البشير شنيتي (سياسة الرومنة)، المرجع السابق، ص 74.
- 51- Gsell (ST), (A. A. A)T1, OP Cit.
- 52 - Grimal, Op Cit, P 11.
-53 - Water, OP Cit, P 71.
- 54 - Gascou (J), Op Cit, P 23.
- 55 - Gsell, (la repub) OP Cit P 58.
- 56 - Diehl, Op Cit, P 242.

- 57 - Battifol, Op Cit, P 119.
-58 - IBid, P 122.
- 59 - Mommsen, Op Cit, P 90.
- 60lbertini, Op Cit, P 56. -
- 61 - Ibid, P 57.
- 62 - BAlout, Op Cit, P 11.
- 63 - Grimal, Op Cit, P 10.
- 64 - Ibid, P 11.
- 65 - Pérenne, Op Cit, P 70.
-66 - Walter, Op Cit, P 70.
-67 -Ibid, P 71 .
- 68 - Messnage, Op Cit, P 104.
-69- Ibid, P 106.

70 – محمد البشير شنيتي،(سياسة الرومنة)، المرجع السابق، ص.137

71 – نفس المرجع، ص.138

- 72 - Ahmed (S). P 349.
-73 - Bordet, OPCit, P 64.
- 74 - Alfanic, Op Cit, P 181.
- 75 - Ibid, P 183.
- 76 - Ibidem
-77 - Cagnat, Op Cit, P 22.
- 78 - Ibid, P 23.
- 79 - Dion Cassius, Op Cit, P 26.
- 80- Ben Abou (M), des cultes romains, 1970, P 60.
- 81 - Ibid, P 63.
- 82- Saxer (V), Saints Ancien d` Afrique du Nord, 1979, P 11.
- 83 - Ibid, P 12.
- 84- Georger (A), l`église de l`Afrique du Nord, 1991, P 32.
-85 - Ibid, P 33.

- 86 Freud (W.H.C), the donatist of protestin Remain Nortu Africa, Ex Ford press, 1952, P 331.
- 87 - Ibid, P 332.
-88 - Ibid, P 333.
- 89 - Messnage, Op Cit, P 21.
- 90 - Freud (W.H.C), Op Cit, P 340.